بسم الله الرحمن الرحيم

( كيف يرضى الله بوجود الشر في العالَم ؟ )

١- الشر هو الألم. والألم شر لأنه يجعلك تكره الوجود ، فإن كنت في حالة تكره استمرارها وترغب في تبديلها فهي شرّ بالنسبة لك. ولا يهمّ بالنسبة للوجدان تعريف الشرّ بالنسبة لجميع الناس أو جميع الخلق لكن المهم هو الوجدان الفردي، فما هو شرّ بالنسبة لك هو الشرّ الوحيد لك فحتى لو فرضنا أنه خير بالنسبة لغيرك فإن علمك بأنه خير بالنسبة لغيرك لا يغيّر بالضرورة كونه شرّاً بالنسبة لك. فإذا تألمت في جسمي مثلاً بسبب شرب حساء حارّ فلن يغني عن شيء أن يقال لي "لكن فلان من الناس شرب نفس الحساء ولم يتألم بسببه". الألم بالنسبة لي هو الألم الوحيد الذي يهمّني. لكن نحن نعلم وجدانياً أننا نتألم أحياناً ليس بسبب وقوع شيء مؤلم علينا لكن بسبب وقوعه على غيرنا ممن يهمّنا أمره كابن أو أم أو صديق، ونجد ألماً في أنفسنا وأحياناً يمتد إلى أجسامنا بمجرّد معرفتنا بوقوع ألم معين لهم، ومثل هذا يعتبر شرّاً أيضاً بالنسبة لي لأنه بلغ إليّ وتسبب بإزعاجي وإفساد مزاجي وتعكير صفوي وإيلام نفسي وجسمي، باختصار الألم بكل مستوياته. الصفة الأساسية لكل ما هو شر هي كره وجوده وكره استمرار وجوده فيك. ومن هنا نعلم أن الشرّ

شـيء حـقيقي، ومـعلوم بـالـوجـدان والإحـساس، ولا يمـكن بـحال مـن الأحوال إنكار وجوده باختراع ألفاظ لغوية أو مفاهيم تجريدية. فالشرّ موجود فـي الـعالَـم. ولا يـوجـد أحـد حـتى ممـن يـنكر وجـوده نـظرياً إلا ويـعترف بـوجـوده نـظرياً فـي مـواضـع أخـرى مـن كـلامـه وبـالـتأكـيد يـقرّ بـوجـوده واقـعياً فـي حـياتـه الـشخصية وتـصرفـاتـه ويـشهـده فـي نـفسه. وبالنسبة للقرءآن يقول "قل أعوذ برب الفلق. من شرّ ما خلق" فالشرّ هنا مقرون بخلق الرب، وكذلك قال "لا يضرّونكم إلا أذى" وهذا في النبي والمؤمنين الذين يتعرّضوا للأذى، والضرر والأذى والألم والإساءة وبـقية الأمـور مـن هـذا الـصنف كـلّها داخـلة فـي مـعنى الـشرّ الـكلّي، فـسنتكلّم عـن الـشرّ كـحقيقة كـلّية تـتضمّن هـذه الجـزئـيات والأنـواع المختلفة من الشرّ، والاستعاذة بالله من الشيء هي بحد ذاتها دليل على اعتراف القرءآن بوجود الشر وإلا فلا استعاذة من الخير والمحبوب واللذيذ الغالب، والأدلة على هذا المعنى كثيرة من القرءآن. ونستطيع الإتـيان بجـميع كـتب الأديـان والملل والنحـل المخـتلفة لإثـبات إقـرارهـم الصريح أو الضمني بوجود الشر في العالَم، سواء نسبوا خلقه إلى الله أو إلى من سواه لكن المهم أنهم يعترفون بوجود الشر. وكذلك يمكن الإتيان بكل فلسفة ومذهب فكري يدعي عدم وجود الشر ونثبت أنهم يقرّون بوجوده تـصريـحاً أو تـلميحاً. ولا نـريـد الـتطويـل فـي هـذا الـباب البديهي المعنى، ويكفي ذكرناه لتقرير حقيقة الشر في العالَم. من هذا

المنطلق نريد أن نسأل: كيف يرضى الله بوجود الشر في العالَم؟ فتعالوا ننظر.

٢- لا وجود الله ولا صفة الله تقتضي عدم وجود الشر في العالَم. أما وجود الله فهو من وجه غير معلوم الكنه لأنه المطلق المتعالي بنحو لا يمكن قياسه على أي شيء موجود ومخلوق، فمن هذا الوجه يتعالى على الخير والشر كليهما ، ومن وجه آخر كون الله موجوداً أي نفس حقيقة الوجود لو كانت تقتضي من حيث ذاتها عدم وجود الشر لما كان للشر أي وجود في العالَم إذ لا يصدر عن الله شيء غير ذاته وما تقتضيه ذاته لأنه لا يوجد غيره في الحقيقة ولا إله سواه ولا إله ولا وجود خارج إحاطته وسعته بالتالي لا غير له حتى يكون هذا الغير هو مصدر الشر باستقلال عنه فكل موجود سواه هو منه وبه وله وإليه وعليه وفيه فلو كانت ذاته تقتضي عدم الشر لما لكان للشر وجود فبما أن الشر موجود فذاته لا تقتضي عدم الشر. وأما صفة الله فهي ما بين كمال وجمال وجلال، فكماله كأحديته وجماله كرحمته وجلاله كانتقامه، فصفة الكمال تقتضي انحصار الوجود والكمال فيه هو بالتالي لابد من كون الوجود مستعاراً غير أصيل في كل موجود من دونه والشعور بهذه الاستعارة والفقر الدائم لاستمداد الوجود من الله هو من الشر ومسببات الألم إذ كثير من الشر في العالم يدور

حول إهلاك المخلوق وإعدامه أي إرجاعه إلى أصله العدمي وسلب الوجود المستعار منه، فنفس انتقال الشيء من عدمه الأصلي إلى ساحة الخلق هو انتقال غير طبيعي وفوق طبيعي فهو مضاد للحالة الذاتية أو الحركة الذاتية للمخلوق كصعود الجبل مثلاً فهو مضاد للحركة الطبيعية التي هي الهبوط وسقوط الأشياء إلى أسفل بحكم الجاذبية، كذلك جاذبة كل مخلوق هي باتجاه العدم، فخلقه الله وأعطاه نور الوجود لكن هذا العطاء عملية فوق طبيعية وقاهرة وخارقة للطبيعة من هذا الوجه، لذلك نجد أسباب الشر كالقتل والتعذيب والمرض وغيرها في العالَم فهي في الحقيقة من مقتضيات صفة الكمال لله التي تحصر الوجود والكمال في ذاته فتتجلّى في العالَم بهذه الأسباب. وأما صفة الجلال فإنها أظهر في كونها السبب الأعلى للقهر والإفناء الذي يصيب الخلق. وأما صفة الجمال فهي الوحيدة التي يمكن نسبة سبب الإيجاد والبقاء النسبي للخلق إليها، فرحمته هي التي أوجدت كل شيء وتحفظ وجود كل شيء وتنميه وتدفع عنه أسباب الفناء والإيلام أي تدفع عنه الشر. فلا النظر في وجود الله ولا في صفاته يقتضي لا نظرياً ولا عملياً نفي وجود الشر في العالَم، بل على العكس تماماً، ونجد فيها التفسير الأعلى لوجود الشر في العالَم. فالله خلق العالَم ليكون مرآة له يعرف فيها نفسه، فالله يعرف نفسه بنفسه ويعرف نفسه بخلقه، ومعرفة نفسه بخلقه

رمزياً بالنسبة لنا تشبه النظر في وجوهنا بوسيلة مرآة تعكس لنا صفتنا ، كذلك العالَم بالنسبة لله يعكس صفات الله بطريقتين، طريق المباشرة فالله جميل فنجد في العالَم جمال والله رحيم فنجد في العالَم رحمة وهكذا ، وطريق العكس فالله جميل فنجد في العالم ضد الجمال وهو القبح والله كريم فنجد في العالَم ضد الكرم وهو البخل، فالعالَم مرآة لله من وجهين. بالتالي وجود الشر الذي هو النقص والألم والضعف والمحدودية داخل في التركيب الذاتي للعالَم لأنه يعكس لله صفة كماله وتعاليه وقوته وإطلاقه. فالله خلق العالَم له والعالَم كما أراده، و"لا يُسأل عمّا يفعل وهم يُسألون"، ولا يوجد لدينا إله آخر نرجع إليه غيره، فطوعاً أو كرهاً لا مفرّ من هذه الحقيقة.

٣- النظر في تفسير الشرّ بالنسبة للإنسان لابد أن يتحدد قبله مسألة مهمة وهي وجود الآخرة. فهل الآخرة موجودة أم معدومة؟ إن افترضنا وجود الآخرة فسننتهي إلى نتائج غير ما سننتهي إليه لو افترضنا عدم الآخرة، وقيمة الشر وأبعاده ستختلف بحسب هذا السؤال. فما نعتبره شرّاً الآن ستختلف قيمته بالنسبة لنا إن اعتبرنا الدنيا كرسمة غير منتهية بعد لا يزال الرسام يرسمها فالرسمة قبل الفراغ منها قد تكون قبيحة وفوضوية لكن بعد انتهاء الرسام من إبراز الصورة كما هي في عقله قد تكون أجمل رسمة في تاريخ الفن

كله، كذلك العالَم إن كانت الدنيا هي مجرد مرحلة من مراحل تجلّي العالَم الذي هو إرادة الله وفكرته السابقة وجوداً على ظهورها في الخلق، فلا نستطيع الحكم النهائي على أن العالَم كله شر أو أغلبه شر أو كون الشر الذي فيه مبرر لتحصيل خير أعظم مع بطلان الأثر الماضي للشر وكذلك الانفعال النفسي للشر في الدنيا كل هذا سيتغيّر لو افترضنا أن الدنيا مرحلة من مراحل رسمة العالَم وليست كل العالَم. وأما إن افترضنا عدم الآخرة مطلقاً فهذا ليس إله الأديان المعروفة وخصوصاً ديننا فلا يلزمنا الجواب عنها هنا لأني لا أنتمي لدين لا يؤمن بآخرة ويفترضها، مع العلم أن صورة الإله خالق العالَم ستختلف إن افترضنا وجود الآخرة عنها لو افترضنا عدم الآخرة لا فقط الشر هو الذي سيختلف في أعيننا. فصورة الخالق وصورة الشر ستختلف بحسب موضوع الآخرة وجوداً وعدماً وكيفيةً. لكن هذا لن يغيّر من اعتبار الشر جزءاً أصيلاً في العالَم سواء قلنا بالآخرة أم لم نقل بها، فحتى لو قلنا بالآخرة فإن جانب معينّ من ظواهر العالَم سيبقى شرّاً وإن كان مفسّراً وإن كان يأتي معه يسر وخير عظيم في باطن الإنسان أثناء حصوله في ظاهره يبرر وجوده، فلا مفرّ مع ذلك من الاعتراف بوجود نسبة معينة من الشر والتي هي الألم ورؤية النقص ونحو ذلك. فوجود الآخرة يقلل من حدّة الشر وتأثيره السلبي في النفس لكنه لن يلغي كل أبعاد الشر فالشرّ أصيل في العالَم لا

يمكن رفعه ولا إبطاله بالكلّية، ولولا أن سبب الشر وإرادته أصيل في ذات الخالق وصفته لما أمكن للشر من الوجود في العالَم وهو كما ذكرنا من اللوازم الذاتية لصفة كماله وصفة جلاله وحتى باعتبار صفة جماله لأن الرحمة تطلب مرحوماً ولولا النقص والألم والضعف لما وجد محلّ لنزول الرحمة أصلاً. بالتالي وجود الخالق يقتضي وجود الشر في المخلوق، لذلك لا مجال لرفع الشر مطلقاً من العالَم. "أعوذ بك منك". "قل أعوذ" فهو الذي خلق الشر وهو الذي أمر بالاستعاذة به من الشر. فلا مفر منه إلا إليه ولا ملجأ منه إلا إليه. الآخرة تخفف حدّة الشر ولا تبطل وجود الشر ولا يمكن إزالة الحد والفرق ما بين الخير والشر بمجرّد إدخال عنصر الآخرة في الاعتبار، أقصد الإزالة المطلقة من كل وجه. في بقية هذه المقالة سنفترض وجود الآخرة في باطن النفس اليوم وبعد الموت حسب الرؤية القرءانية. لأني أؤمن بها وأراها تفسّر العالَم أحسن تفسير.

٤- هل سنقيّم مصلحة المتألم من حيث مصلحته الدنيوية أم الأخروية. لنقل هنا دفعاً للاستثناء ات الممكنة أن المتألم هو طفل. حتى لا يقال أن الألم جا ء بسبب كون الشخص ارتكب عدواناً على غيره فارتدّ عليه الألم كجزا ء على طريقة كما تدين تدان فيتبرر الألم بكونه عدلاً. لنقل أنه طفل دفعاً لأشباه هذه الاحتمالات. ونحن نرى

الأطفال يتألمون ويعتدى عليهم ويضربون ويمرضون وتقع عليهم أنواع الآلام. فما سبب ذلك؟ هنا لابد من الاختيار مبدئياً بين المصلحة الدنيوية والمصلحة الأخروية. بالنسبة للدنيا لا يتبرر ألم الطفل من حيث أنه لم يفعل شيئاً بإرادته يستحق به هذا الألم حسب ما يظهر لنا. لكن في ضوء الآخرة الألم رفعة وكفارة والموت نجاة وسلامة. وأبينّ ذلك بقصّة وقعت لأخي محمد حتى يتبينّ المعنى بوضوح إن شاء الله.

تعرّض لأخطاء طبية فادحة يوم ولادته أدّت إلى فساد في دماغه وشلل في جسمه فصار لا يتكلّم ولا يتحرّك بشكل عام وتأثر كل حواسه وأحسن ما بقي فيه سمعه وبقي كذلك تقريباً سبعة وعشرين عاماً، وتقوم على شؤونه خادمة دائماً. في أواخر أيامه هربت خادمتا البيت ولم يبق معه أحد، فاحتجنا إلى شخص يقوم بأمر تغيير حفائضه وتنظيف جسمه. فتقدّمت أنا وأخي الأصغر لذلك ودخلت بقلب منشرح ومفتوح تماماً بنحو عجيب بالرغم من شهرتي بالتقزز حتى من نفسي في هذه الأمور، لكني كنت أبتسم وأنا أخدمه وألاطفه بالكلام وكان هو أيضاً يضحك ولا أدري لماذا لكنه كان ضحكاً قوياً بشكل غريب لم أرَ مثله قبله ولا بعده ولا علاقة له بشيء كنت أفعله لأني كنت بكل بساطة أغيّر حفاضته وأمسح جسمه بنحو طبيعي وهادئ لم يكن فيه أي دغدغة ولا شيء يمكن أن

يثير الضحك بل كان بمجرّد دخولي وبدأي بالعمل يضحك بقوة عجيبة، وبقيت على هذا الحال يومين، وكنا نبحث عن خادمة في أثناء ذلك. في الليلة الثانية دخلت وخدمت وهو يضحك بقوة كاليوم الماضي وفرغت من خدمته وصعدت إلى الحمام لأغتسل، ولم يردنا أي خبر عن وجود خادمة، وأنا أغتسل فجأة نزل عليّ شيء أوقفني عن الحركة ونظرت أمامي فإذا بي أجد نفسي عند باب الجنّة وأخي محمد يفتح لي الباب فرأيته وإذا هو رجل طويل جميل جدّاً فخم بهي يشع نوراً من بياضه وأدخلني وأخذني وجلسنا بجانب نهر وصار هو يخدمني ويسقيني وقال لي "كنت أضحك بسبب رؤيتي ما سيعطيك الله إياه على خدمتك لي". ثم رجعت إليّ نفسي ورأيت نفسي في الحمام من جديد وعرفت حينها أن فترة خدمتي له انتهت، وفعلاً في تلك الليلة جاءت خادمة جديدة له وكان هذا آخر عهدي بخدمته، وأردت أن أرى ماذا سيحدث حين تغيّره وتنظفه الخادمة الجديدة لأرى إن كان سيضحك أم لا فنظرت وكان أبرد من الحجر معها لا ضحك ولا تأثر ولا شيء.

الآن، هذا أمر واحد من بين أمور كثيرة تتعلّق بالفوائد الأخروية التي نزلت علينا بسبب أخي محمد. فمن جهة، وجود المعاق بيننا هو فرصة لإظهار المبدأ الإنساني الروحاني الذي فينا أي المبدأ الذي لا يطلب المصلحة الدنيوية بالمعنى الضيق والمقابل المادي على سبيل

التجارة الباحثة عن المصلحة المادية، لذلك السفلة من البشر كالنازيين الذين كان همهم الأول والأخير المصلحة المادية كانوا يرون إعدام المعاقين بحجة عدم نفعهم للمجتمع-النفع بمفهومهم هم طبعاً والذي جلب عليهم أخيراً الدمار والفناء في جيل واحد والحمد لله، وكانوا يظنون أنهم أقوياء إذا تخلّصوا من الضعفاء، والحق أن هذا انتكاس تام في الفهم، لأن القوي حقاً هو الذي لا طلب عوضاً وهو غني عن العوض في تقديمه لعمله وقوته لخدمة الآخر، الضعيف يشعر بقدان قوته إذا أعطى شيئاً أو عمل عملاً ولذلك يريد مقابل مادي يعوضه، لكن القوي يعمل بدون طلب ولا حتى توقع مقابل لعمله (بدون طلب إن كان قوياً، بدون توقع إن كان قوياً جداً)، فهو يعمل ويعطي من فيض قوته التي لا تنضب أو مخزونها عال جداً لا يتأثر بالعطاء والعمل الجزئي. بالتالي ما يظهر أنه شر في الإعاقة الطفولية مثلاً هو في الحقيقة من أعظم وأكبر المنافع للناس من حيث إعطاءهم الفرصة العملية الحاسمة في إظهار أعظم ما فيه وتثوير أعمق ما فيهم من إنسانية وروحانية وربّانية، فالمعاق بحسب الصورة هو رسول بحسب الحقيقة يدعو الناس بلسان حاله إلى الصعود إلى أعلى ما يمكن أن تبلغه نفوسهم وهو العمل من مبدأ القوة العالية ومن مبدأ الإنسانية الراقي ومبدأ الربانية في العطاء المطلق. فالإعاقة شر من وجه لكنها خير عظيم من وجه آخر، وإن وازنّا بين الأمرين سنجد أن الخير يطغى

على الشر ويغطّيه تماماً، بل الحكم على الأمر سيختلف تماماً ويصبح خيراً.

ثم أخي محمد نفسه حين توفي رأيته يصعد درجاً على طرفي كل درجة مَلَك ساجد وخلفه صف طويل من الأنبياء والأولياء، وارتقى أخي محمد الدرج كلّه حتى صعد إلى أعلى درجة وعليها يقف نبينا محمد وحده وبيده القرءآن فأعطاه لأخي وانفتح له باب الجنّة فدخل. وتبينّ لي سبب ذلك من أحد الوجوه السببية وليس السبب الأكبر الذي هو فضل الله، وذلك لأن أخي محمد عاش محمدي الفقر تماماً وهو آية في الفقر إلى الله، فقد كان حياته كلّها لا يفكّر ولا يدبّر لنفسه ولا يعمل شيئاً بل يتقلّب بين يدي القدرة والرحمة الإلهية التي اعتنت به ويسّرت أموره لثلاثة عقود تقريباً، وكنّا نرى بركة وجوده وحضوره في البيت حتى فقدناها بعد وفاته وشعرت بها شعوراً واضحاً وحين توفي قبل أن أعلم بوفاته ظاهراً شعرت بالبلد كلها مظلمة وذقت حضور الموت حتى في الهواء وفي نفسي ولم أستطع الكلام حينها من شدة الغم الذي غطّى على العالَم والحزن الذي كنت أستشعره في كل شيء وهذا كلّه كما قلت وأنا لم أعلم بعد أنه توفي فعلاً ثم تبينّ لي ذلك بعدها حين وصلت المستشفى ولم يخبرني خادمه هناك أنه توفي لكنه طلب حضورنا بلهجة عادية جداً ليس فيها أي شيء ولم أتوقع وفاته بسبب هذا الطلب وشعرت بما شعرت به حتى قبل استقبال

المكالمة التي طلب مني فيها ذلك في الليل ولم يكن الوقت متأخراً جداً نعم كانت مكالمة على خلاف العادة لكنها لم تكن السبب في ما شعرت به ورأيت ذلك في نفسي بوضوح. المهم، هذا المقام العالي بل الأعلى الذي ارتقى له أخي محمد كان أحد أسبابه هو تحمّله للشرّ الذي وقع عليه أقصد الشلل الدماغي والجسماني مع كل ما صاحب ذلك من متاعب خلال ثلاثة عقود تقريباً، حتى إنه تعرّض لمحاولة اغتيال من خادمة فليبينة أرادت أن ترحمه بزعمها على ما يبدو فكاد يختنق في غرفته لولا أن ألهم الله أخي الأصغر بنحو لم أرى له مثيلاً من قبل حيث استيقظ من نومه وصعد إلى غرفة محمد في الأعلى بدون أي سبب ظاهر على الإطلاق ولم يكن ذلك من عادته ولا يوجد أي داع له وفتح غرفته وتبينّ له ما حصل وأن الخادمة أغلقت من اليوم السابق مكيفات الغرفة في وقت حرارة الشمس الشديدة حتى يختنق من الحر وهربت من البيت فدخل أخي ورآه غارقاً في عرقه منذ ساعات طويلة لعلها تبلغ العشرة، وهلمّ جرّاً إن أردنا إحصاء ما حصل له عبر رحلته في الدنيا سنطيل الكلام (ملحوظة: هروب هؤلاء الخادمات في آخر بضع سنوات لا علاقة له بمعاملة أهل البيت لهم بل راجع إلى قوانين عمل الخادمات في البلد والخوف من الترحيل ونحو ذلك من أسباب مع عمل في الدعارة أحياناً يجعلهن يكسبن أكثر من العمل في البيوت وأسباب أخرى تختلف من خادمة لأخرى)، فكل

هذا الأذى الذي صبر عليه بفقر محمدي تام جعله آية في الفقر وآية لنا وآية لكل من يعرف عنه ويعقل عن الله فعله في أوليائه، والمصير أنه الآن في النعيم الأعلى المقيم في أعلى الدرجات مع النبي وكل ما مرّ به في الدنيا كأنه عدم بالنسبة له وانتهت السنوات القليلة من المعاناة والآن أمامه الأبدية بكل أبعادها من النعيم، وهذه صفقة رابحة بجميع المقاييس. فالحالة النهائية تجعل العمل والرحلة كلّها خيراً، وإن كانت محطّاتها الأولى صورتها شرّ.

الإعاقة في الدنيا هي رحمة خالصة في الآخرة، لأن المعاق لا حساب عليه إذ لا تكليف على من لا يعقل ولا يعمل بحريته. فمن أراد أن ينظر إلى شخص من أهل الجنة فلينظر إلى معاق. وكل عضو معاق هو عضو تخلّص من التكليف الشرعي بالتالي هو رحمة خالصة وحرية تامة فهو آية على الجنّة من هذا الوجه إذ الجنّة هي الرحمة الخالصة والحرية التامة. لذلك من الجهل العظيم إرادة التخلّص من المعاقين أو عدم النظر إليهم أو الخوف منهم أو كره وجودهم واعتبارهم تكليفاً شاقاً على من يعتني بهم. الحق أنه علينا أن نرفعهم في مجتمعاتنا لأسباب دنيوية كإظهار القوة الإنسانية وفيض قونا ولأسباب أخروية ككونهم آية الجنة وخدمتهم من أعظم الوسائل والقرب إلى الله لأنهم أولياء الله الفقراء إليه ورسل بفطرتهم ودعوتهم بلسان حالهم الذي هو أشرف الألسنة وأصدقها.

وقس على ما مضى بقية مظاهر الشر في الأطفال فضلاً عن الرجال والنساء والشيوخ. ففي ضوء إرادة القوة والرفعة في الدنيا هم وسيلة لإظهار ذلك وتربية الناس عليه، وفي ضوء إرادة الرفعة في الآخرة وعند الله فهم وسيلة لإظهار ذلك وتحصيل الناس له. فما يبدو كشرّ لمن يعتبر الخير مجرد القدرة الصورة على الحركة أو الكون في صحة ونحو ذلك هو من وجه آخر خير ليس فقط للفرد المريض أو المعاق أو الذي وقع عليه أذى بل هو خير لمن حوله وخير للكون كلّه باعتبار آخر، فلا حجّة لاعتبار الأول دون اعتبار الثاني، فلا يمكن الحكم على الحالة بأنها شر إلا من زاوية محددة وتوجد زاوية أخرى تكشف أنها خير، فلا يجوز القول أن الله فعل الشر في هذه الحالة إلا بالنسبة لمن يراها شراً وبحسب تلك الموازين التي هي حق من وجه، لكن يوجد زاويا وموازين أخرى هي حق أيضاً بل أحق من حيث الهمّة العالية والإرادة السامية والأبعاد الأبدية.

٥-الدنيا فيها كل الاحتمالات. فطفل يموت وطفل يعيش، طفل يمرض وطفل يصح، وهكذا في كل الناس والمخلوقات، فمن حيث الكيفيات توجد في الدنيا كل الاحتمالات. وأما من حيث الكمّيات فعدد الذين تقع عليهم أوجه الشر أقلّ من عدد الذين تقع عليهم أوجه الخير، فمن النادر أن يولد الطفل مريضاً لكن الشائع ولادته صحيحاً، وهكذا في

كل أمر آخر بشكل عام. وهذا أمر مهم جداّ لابد من تذكره دائماً خصوصاً في زماننا هذا بإعلامه الذي يركّز على النادر والاستثنائي والشرير تحديداً بل حتى إن كان في الحادثة الواحدة سبعة أوجه خير ووجه شر فإن الإعلام يركّز على وجه الشرّ ويبرزه، وذلك راجع إلى سبب صحيح هو إرادة الإصلاح بكشف أوجه الخلل في الأشياء ويرجع أيضاً-ولعله هو السياسة الأساسية للإعلام-إلى سبب قبيح هو إرادة الأرباح عبر جذب الناس بالدم والخطر والإنذارات فمن شعارات الإعلام المعاصر قولهم "إن كان في الحادثة دم فسيتابعها الناس" (ترجمة عن الانجليزية If it bleeds it leads ).

فيبدو لمن يتابع وكالات الأنباء المعاصرة أن الدنيا كلها شر أو الغالب عليها الشر، وهذا أكبر إفساد إعلامي عبر التاريخ البشري كلّه لأن قدراتهم أعظم ومتابعة الناس لهم أكثر. الحق أن الدنيا الغالب عليها الخير، الغالب بشكل طاغي، الغالب هو السلام والهدوء والنظام، ولذلك حين تأتي الحادثة الاستثنائية نستغرب ونتابعها ، كحادث طائرة مثلاً بالرغم من أنه يومياً توجد عشرات الآلاف من الرحلات السليمة التي طارت وهبطت بسلام وأمان لمدة سنة كاملة لكن حين تسقط طائرة بسبب خلل مرّة في السنة فإن الإعلام ينقلب رأساً على عقب ويبدأ بالمناداة بالويل والثبور فيتخيّل البعض أن الطائرات وسيلة نقل خطرة بالرغم من كونها بحسب الإحصاءات أكثر وسائل

النقل أمناً على الإطلاق، فحين يتم الإنباء عن سقوط طائرة لا يذكّرون الناس حفظاً للتوازن بأن هذا استثناء فيقولوا مثلاً "من بين العشرة آلاف رحلة طيران اليوم في كل بلاد العالم التي وصلت إلى محطتها النهائية بسلام وأمان، سقطت طائرة في ماليزيا بسبب كذا وكذا"، فإن مثل هذا الكلام سيبقي الحادثة في إطارها الواقعي ولن يسبب خللاً نفسياً لأنه سيظهرها كاستثناء ويذكّر الناس بذلك. وقس على ذلك بقية الحوادث. الحق أن العالَم ممل تحديداً لأنه مسالم وهادئ ومعظم ما فيه متوقع مسبقاً، وأنت تعلم ذلك وتبني يومك عليه، فحين تخرج من بيتك إلى العمل وتركب السيارة فإنك لا تضع في حسبانك أنك معرّض الآن لحادث سيارة يمكن أن يهشم دماغك ويجعله واحداً مع راديو السيارة بحيث لا يستطيع حتى أعظم خبراء العالم فصل مخيخك عن زرّ تغيير محطة الراديو، كلا هذا لا يخطر ببالك وإن كان-حرسك الله-ممكن الحصول ويحصل لكثير من الناس، لكنه الاستثناء والحمد لله، الشائع والأصل هو أنك تركب السيارة ولعلك لم تستيقظ بعد كل الاستيقاظ ولا تبالي بعدم تركيزك التام، وتشغل الأغاني أو تسمع محاضرة في طريقك ولا تبالي بما يأخذ من تركيزك، وتسوق السيارة بيد واحدة وتشرب عصيراً أو قهوة في اليد الأخرى بل لعلك تأكل شيئاً باليد الثاني وتسوق السيارة بركبتك (حركة تعلّمتها من والدي)، ولعلك تكلّم شخصاً أثناء أكلك وشربك

فوق ذلك، وهذا كلّه وأنت مرتاح تماماً ومتوقع للسلامة ولعلك فعلاً في الغالبية العظمى من الأيام لن يحصل لك ولا حتى ازعاج بسيط بسبب ذلك، وعلى هذا النمط بقية الأمور في الحياة. أكثر الناس يعانون من الملل والغم في الدنيا ليس بسبب الخطورة التي فيها فإن الخطورة والمخاطرة فيها نوع مغامرة مثيرة وتجذب الانتباه وتثير النفس وتمتعها بنحو ما، كلا، أكثر الناس يعانون من ذلك بسبب الملل الناشئ عن رتابة الدنيا وبساطتها وتوقع ما فيها، خصوصاً في زماننا هذا وكلما ازدادت الدول تحضراً زاد نظامها بالتالي زادت رتابتها والملل لأكثر الناس فيها بسبب السهولة ومعرفة مكان كل شيء مطلوب وكيفية تحصيله بأقرب السبل. فالغالب على الدنيا إذن الخير وليس الشر. لذلك تفسير هذا الشر النادر لابد من إرجاعه إلى سبب لأنه غريب عن النمط العام.

ما هو سبب وجود الشرّ الاستثنائي وأي هذه الأسباب يمكن نسبته إلى فعل الله المباشر بالمعنى الخاص لذلك؟ إذا نظرنا إلى أي شر يقع على الناس سنجده لا يخرج عن احتمالات كبرى. إما جهل الناس بشيء، وإما عدم إتقانهم لعمل شيء، وإما إلى عدم احتياطهم من شيء، وإما إلى ظلم بعضهم بعضاً، وإما إلى قهر طبيعي بحت بالرغم من العلم والإتقان والاحتياط والعدل. إذا صنّفنا الشر بهذه الموازين الخمسة (العلم والإتقان والاحتياط والعدل والقهر)، سنجد أن

الغالبية العظمى التي تكاد تحيط بكل الحوادث راجعة إلى تقصير الناس أنفسهم وهنا أقصد بحسب الظاهر والباطن معاً، أي بسبب عدم الاجتهاد في العلم والاتقان والاحتياط والعدل. وأقلّ أقلّ القليل هو الراجع إلى القهر المطلق الذي يستولي على الإنسان بغض النظر عن علمه وإتقانه واحتياطه وعدله. بناء على ذلك، يجب أن لا نلوم إلا أنفسنا إن حصل لنا شرّ بسبب تركنا للعلم والاتقان والاحتياط والعدل، فالعدوان منّا علينا وبغينا منا علينا. قد يخفى عن أكثر الناس كونهم السبب الحقيقي الفعّال للشر الذي وقع عليهم بسبب تركهم لأحد الموازين الأربعة هذه، ويسارعون بلوم الرب تعالى أو العالَم أو الطبيعة أو حتى البشر الآخرين لكن يكون في الحقيقة هو السبب الأول والحاسم في وقوع الشرّ عليه، وبالنسبة لمجموع الجنس البشري لابد من تحمّل الجنس البشري لكل ما يقع على الجنس البشري بشكل عام وحين لا نفكّر بهذا المنطق الجماعي فإننا نجلب البغي على أنفسنا بأيدينا ونخرب بيوتنا بأيدينا مباشرة وغير مباشرة، وأكبر وأهمّ مظالم الناس تقع بسبب الناس لا بسبب الطبيعة الخالصة. فلا يبقى لدينا شر نبحث له عن تفسير غير إنساني مباشر إلا القهر. فإذا نظرنا إلى هذا القهر سنجد أنه يرجع أيضاً إلى أسباب، منها كونه آية لعبودية الإنسان وتذكير له بذلك، ومنها كونه وسيلة لتذكير الناس بحقيقتهم وأعلى ما في نفوسهم، ومنها كونه

وسيلة لتذكير الناس بالآخرة وفناء الدنيا ومحدوديتها ، ومنها كونها مصيبة نزلت عليهم سبب ما كسبته أيديهم فارتدّت عليهم تعجيلاً للعقوبة لهم في الدنيا بدلاً من الآخرة فهي رحمة وتذكرة لهم حتى لا يتمادوا ، ولا أعرف مصيبة قاهرة لا يمكن تفسيرها بهذه الاعتبارات. بالتالي القهر تذكير والتذكير نافع للإنسان وهو رحمة أيضاً والرحمة خير. بالتالي حتى القهر الطبيعي خير للإنسان إن كان له عقل مستنير ورؤية أخروية. فالشرّ الذي سببه عدم العلم والإتقان والاحتياط والعدل هو شرّ جلبه الإنسان على نفسه فلا يلومن إلا نفسه، والشرّ الذي سببه القهر هو إما شر جلبه الإنسان على نفسه فلا يلومن إلا نفسه وإما وسيلة إلى الخير فلينتفع بها. فعلى التحقيق لا حجّة للإنسان على الله في ما يقع عليه من شرور بل "لله الحجّة البالغة".

٦-هل الكفر بالله سيزيل الشر من العالَم؟ بعض الناس يرى الشر ولا يعترف بكل ما ذكرناه من اعتبارات ويعتبر الشر شرّاً والسلام، وله وجه من حيث أن الإنسان يريد الراحة التامة والراحة التامة تكون في الوجود في مكان لا يحتاج أصلاً فيه الإنسان إلى تنظيم حضارة ولا تحصيل علم ولا إرهاق الاتقان ووسوسة الاحتياط ولا التحرّز عن الظلم الراجع إلى ضعف الإنسان وإرادة استغلال غيره ليعمل بدلاً منه

أو إلى خوف الإنسان وإرادته جعل سد بينه وبين المستقبل المقلق وغير ذلك من أمور ترجع إلى طبيعة الدنيا ، فالتواجد في الدنيا بحد ذاته متعب للإنسان فهو في كد وكدح وشقاء بدرجة أو بأخرى، وقطرة السم في الطعام السليم تجعل الطعام سليما وإن كانت القطرة في موضع واحد منه، كذلك الدنيا لأن فيها ولو قطرة سم كدح واحدة قد تجعل بقية الدنيا سمّا مكروهاً للنفس مهما كثر خيرها وغلب وظهر، وبناء على ذلك يرى هذا الإنسان الشرّ هو الظاهر على نفسه ولا يريد أصلاً الحاجة إلى التفكير ورؤية الأبعاد المختلفة الدنيوية والأخروية. حسناً، لنقل بذلك الآن. حكمنا بأن العالَم كله شر. ثم ماذا ؟ بالنسبة لعلاقتنا مع الخالق فإن هذا الاعتبار لن يؤثر في قليل أو كثير في الخالق نفسه، لأنه بحكمنا على العالَم أنه شر نكون قد حكمنا بأن خالقه أراده شرّاً. فأمامنا طريقين لا ثالث لهما ، إما قبول ذلك والتعايش معه، وإما الكفر بالخالق على اعتبار أننا في عقولنا نرى أن الخالق لابد أن يخلق خيراً أو إن لم يخلق خيراً فإننا سنرفضه ولن نحبّه ونرضى عنه. فنسأل هنا : ومن أين جئنا بأن الخالق لو كان موجوداً فلابد أن يخلق خيراً بدلاً من عالَم غارق في الشر؟ هذه الفكرة نفسها من أين جئنا بها ؟ لم نأت بها من العالَم نفسه بالتأكيد لأن العالَم كما حكمنا هنا هو عالَم شر، ولم نأت بها من أنفسنا لأننا إن قلنا بأن أنفسنا جزء من العالَم فهي شرّ أيضاً إذ العالَم شر فما

كان من العالَم فهو شر أيضاً، فمن أين جئنا بفكرة الخير أصلاً وحكمنا بأن الخالق لابد أن يخلق خيراً؟ هذا سؤال على من يتبنى هذا الوجه الإجابة عنه. لكن إن قلنا بأننا سنعترف بالخالق بالرغم من أن العالَم شرّ، فماذا سنفعل الآن؟ إن قلنا لن نرضى عن الله لأنه جعلنا في عالَم شر، فإن الشر لن يتغيّر في العالَم، وأنفسنا ستزداد مرارة بسبب عدم رضانا عن الله وبالتالي عن العالم وعن أنفسنا، فنحن بذلك نزيد الشر في العالَم بمرارتنا وعدم رضانا فحلّنا لمشكلة الشر هو بحد ذاته شر إضافي. إلا أننا نفترض بعدم رضانا عن الله أننا نؤثر في الله ونجعله غير راض في نفسه لأننا لا نرضى عنه، ولعل لذلك وجهاً في الحقيقة لأن الله يقول "رضي الله عنهم ورضوا عنه" فالله يريد رضى المؤمنون به عنه، وبعدم الرضا عنه لا نحقق له مراده كما أنه لم يحقق لنا مرادنا بخلقنا في عالَم شر ونحن نريد الخير، أي أننا عاملنا الله كما عاملنا، فهو عاملنا بجعلنا في عالم شر مضاد لإرادتنا لعالم خير، ونحن سنعامله بعدم الرضا عنه وعدم فعل ما يأمر به وينهى عنه حتى إن ءامنا برسله كرسل صدق من باب المعاملة بالمثل والعدل. هذا هو الالحاد المستنير، إن كان ثمة الحاد مستنير. أي هو الحاد وكفر له سبب صريح واعي يتعلّق بالعدل في التعامل مع الله حتى بناء على الإيمان بالله والرسل. فمثل هذا الكافر هو مؤمن بالعدل بشدة، ويطبّق العدل كما يراه على نفسه وعلى ربه ولا يجعل

الجلالة الإلهية تعمي عينه عن حقيقة واقعه ومراده وقيمة العدل، فالعدل ينطبق حتى على الله تعالى، ولمثل هذا حجة من القرءان حيث ينفي الله الظلم عن نفسه في أكثر من موضع فلولا أن العدل ينطبق على الله لما احتاج إلى نفي الظلم عن نفسه. وعلى ذلك، الكافر هنا يطبق العدل على الله، ويقول له "لم تفعل بي ما أريد، فلن أفعل لك ما تريد". على اعتبار أنه يريد الراحة التامة بفطرته وهو يرى أن ربه جعله في عالم يحتاج فيه إلى كسر هذه الراحة مع وعده إياه في كتابه بأنه إن فعل ما يريده الله منه سيرجعه إلى الجنة التي فيها الراحة التامة والحرية التامة التي هي راحة الإرادة بتحققها الفوري والفعلي، فبوعد الجنّة نفسه نرى أن القرءآن يعترف بفطرة الإنسان الحقيقية وإرادته الفعلية لكنه يعده بها بعد الدنيا ويقرر حقيقة الدنيا بأنها ليست الجنة أي ليست الموطن المناسب للنفس الإنسانية، فالكافر هنا يأخذ حقيقة الجنّة كشاهد على صدق دعواه بأن نفسه تريد الراحة التامة فهو إقرار من الله ورسوله بهذه الحقيقة النفسية، ثم يأخذ حقيقة الدنيا التي قررها الله ورسوله كشاهد على صدق تقييمه للدنيا بأنها شقاء وكدح وجهاد ونزاع وخصومة أيا كانت النسبة، ويأتي بهذين الشاهدين العدلين ويقدّمهما إلى ربّه بدعوى العدل ويقول له "هذا إقرارك وهذا خلقك، وأنا غير راض عن فعلك. وأنت قلت أن الإحسان جزاء الإحسان، وأنا لا أراك أحسنت إليّ بخلقي في

الدنيا فأنا لن أحسن باتباعك إرادتك ورسلك في الدنيا أيضاً. فهو العدل الذي قلت أنك تأمر به، وأنت العدل، فها أنا أردّ إليك ما فعلته بي. أنت كسرت إرادتي وأنا سأكسر إرادتك، وأنت البادئ". هذا اختيار واعي قد يقوم به البعض، بل قد يقوم به بغير وعي بكل تفاصيله كما بينتها هنا لكنها كامنة في عقله وتبعث تصرفه وكفره. وأنا لا أملك جواباً عن مثل هذا الموقف، فهو شيء بين العبد وربّه. وما أستطيع قوله هو هذا: إن صدق الرسل بأن الذي يعصي الله سيجازئ بالعذاب الخالد حيث سيكون الشرّ أعظم من شرّ الدنيا من وجه الكيفية والكمّية على السواء، لكن طاعة الله ستؤدي إلى الجنّة حيث ترجع النفس إلى موطنها الطبيعي المناسب لها، فالعقل يقضي باختيار أحسن الطريقين وأقربهما إلى المراد، والطريق الأحسن عقلاً هو طريق الطاعة. وأنت وما اخترت. والمقطوع به أن الكفر الواعي أو غير الواعي الذي هو الإلحاد الشائع لن يغيّر حقيقة العالم. أقصد بالالحاد الشائع إنكار وجود الله بسبب رؤية العالم كشر على اعتبار أن الله لو كان موجوداً لما خلق مثل هذا العالم الشرير. نعم، قد يحرر الكفر الإنسان من الالتفات إلى الله وذكره وشرعه، لكن الإيمان بالله والآخرة وشرعه كما رأينا هو ليس عبئاً من كل وجه على النفس بل هو وسيلة تحرير النفس من كثير جداً إن لم يكن كل شرور العالم بإعادة تفسيرها بنحو يجعل تأثيرها في النفس حسناً ومقبولاً ومرضياً عنه،

فالإيمان هو الطريق الوحيد لتغيير العالَم من شر إلى خير ليس عبر تغيير نفس العالَم بالضرورة (وإن كان هذا يحصل أيضاً) لكن عبر تفسير العالَم بنحو يجعله خيراً ليس جعلاً صناعياً مزوراً بنحو سخيف لكن بنحو معقول وعميق من أكثر من وجه. فالكفر لن يغيّر شر العالم لكن الإيمان قد يغيره، فالإيمان خير من الكفر بالنسبة لمن دفعه شر العالم إلى الكفر، لأن كفره لن يغير الشر بل سيزيد الشر في نفسه من حيث إحكام رؤية الشر لقبضتها على عقله وإحكام اليأس من تغيّر الشر على نفسه وإحكام ما سيبعثه اعتبار العالم شرّاً لا معنى له ولا أمل فيه على أعماله وانفعالاته، فالكفر شرّ عظيم فوق شر العالم. فالذي يرى شر العالم فيكفر بربّه هو كمن يرى جرحاً في عنقه فيعالج ذلك بقطع رأسه.

..........................................................................